



جودة الحياة في الدولة السعودية الأولى الدرعية العاصمة نموذجاً

د. بدران بن عبدالرحمن الحنيح







في ثنايا صفحات تاريخ المملكة العربية السعودية الحافل عددً من الأحداث التي كانت بمنزلة تحولات مفصلية تطلبت ظروف المرحلة في حينها، منذ أن وطئت الدرعية أقدام الأمير مانع المريدي قبل 600 عام تقريباً وتأسيسه إمارته فيها، ومروراً بإعلان تأسيس الدولة السعودية الأولى على يد الإمام محمد بن سعود عام 1139هـ / 1727م، ومن ثم نجاح الإمام تركي بن عبدالله (الجد الثالث) في إنعاش مشروع الدولة الحلم مرةً أخرى من خلال تأسيس الدولة السعودية الثانية عام 1240هـ / 1824م. ويستمرّ الأمل برغم الصعوبات والتعثر، وتكرّر المحاولة مرةً أخرى بدخول المؤسس الملك عبدالعزيز الرياض عام 1319هـ / 1902م، ليتحقق الحلم الذي طالما سعى إليه أجداده بإعلان بدء مشروع الوحدة العظيم للمملكة العربية السعودية عام 1351هـ / 1932م، ومن حينها تدرّجت المملكة في سُلّم التطور والازدهار في جميع المجالات، ورفل الناس في النعم والخيرات والأمن والأمان بعد معاناة الخوف والجوع، والظلم والجور، والتفرّق والتشردم. وتسير المملكة اليوم بقيادة خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز آل سعود وولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان - حفظهما الله - بخطى ثابتة نحو تحقيق أجود أساليب العيش لمواطنيها والمقيمين على أرضها، ولذلك ظهر فيها اليوم مصطلح (جودة الحياة) بجلاء تزامناً مع إعلان رؤية المملكة 2030، وأضحى واضحاً وضوحاً كاملاً في عام 2018، وتحدّدت معاييره في تعزيز الأنشطة والمظاهر الثقافية والاجتماعية المتنوعة. ويتردّد سؤال في ذهن المتأمل في تاريخ الدولة السعودية الأولى - وتحديدًا في الدرعية العاصمة في مرحلة ما بعد الأمن والسلام الذي بسط في شبه الجزيرة العربية لأول مرة بعد القرون الماضية - هل عرفت الدولة حينذاك هذا المعنى الاصطلاحي (جودة الحياة)؟ وما أهميته في ذلك الزمان؟ وكيف يجري تقويم جودة الحياة في الدرعية بمعايير تلك الأزمنة في عهد الدولة السعودية الأولى؟

لمّا أصبحت الدرعية عاصمة للدولة السعودية الأولى ازدادت أعداد الوافدين عليها، فأثر ذلك كثيرًا في تركيبة المجتمع الحديث، وتطلّب الأمر انتقال مركز القوة من حيّ غصيبة إلى سمحان في مدة قصيرة، ثم إلى حيّ الطريف حيث مساكن الأسرة السعودية المالكة ومقرّ الحكم، فقد كانت الأسرة جميعها في حيّ الطريف الذي عدّ بذلك الحيّ الأول والأبرز في الدرعية، وقد شهد الحيّ نهضةً معماريةً ضخمةً تمثلت في بناء القصور والمسكن العامة والمساجد والأسوار، وكان من أشهر دلائل تلك النهضة المعمارية قصر سلوى الذي يعدّ من أهم القصور التاريخية والمعالم الحضارية في شبه الجزيرة العربية. وقصر عبدالله بن سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود بن محمد بن مقرن، آخر أئمة الدولة السعودية، وقصور الأمراء سعد بن سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود بن محمد بن مقرن، وعمر بن سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود بن محمد، ومشاري بن سعود بن محمد، وما فيها من تطوّر عمراني يفوق الوصف في البناء

وكان جامع الطريف الواقع بجوار قصر سلوى من الناحية الشمالية بحي الطريف، وقد بُني بأمر من الإمام عبدالعزيز، وكان من أول ما بُني في حي الطريف. وكان أئمة الدولة يؤمّون الناس فيه في صلاة الجمعة، علاوة على كونه مقرّاً لحلقات علمية دائمة يقوم عليها كبار العلماء في الدولة، ويدرسون فيها معظم العلوم الشرعية وغيرها. وقد ازدهرت الوراقة ونساخت الكتب، وأضحى اقتناء الكتب من مميّزات ذلك العصر. إضافةً إلى ذلك انتشرت الكتائب التي تعدّ مكاناً لتعليم مبادئ القراءة والكتابة ودراسة القرآن الكريم وعلوم الشريعة واللغة العربية. وفي الأغلب يكون الكُتاب في المسجد أو في مكانٍ بجواره أو في بيت المعلّم (المطوّع). ولهذا يعدّ الكُتاب في عصر الدولة السعودية الأولى نوعاً ما بمنزلة المدرسة في عصرنا الحالي. كما كان لموقع الدرعية الإستراتيجي أثرٌ في تبادل الثقافات مع جميع البلدان الخارجية بوصفها نقطة عبور قوافل الحجّ والتجارة آنذاك. كما شمل الجانب الثقافي نواحي أخرى، ومنها جماليات المخطوطات السعودية التي كُتبت وزيّنت صفحاتها بالزخارف والنفوش، وازداد الاهتمام بالخط العربي وبتطوّره ونشره من خلال متابعة أدقّ التفاصيل في جمالياته، ومتابعة تعلّم الطلاب فنون هذا الخط وتشجيعهم بتقديم المكافآت المالية لأبرز الخطاطين الواعدين من الشباب. فقد كان الفتيان من أهل الدرعية إذا انتهوا من المعلم يذهبون إلى الأئمة بألواحهم، ويعرضون عليهم خطوطهم، فمن استحسن خطّه منهم أعطوه جزياً.

وبالحديث عن الجانب الاقتصادي نعمت الدرعية بوفرة مالية كبيرة، وازدهر اقتصادها وكثُر عمرانها، فكانت مركزاً تجارياً مهماً، وبهذا تحوّلت إلى مركز جذبٍ سكاني. وكانت الدولة من ناحية أخرى تدير أنشطتها من حيّ الطريف، واعتادت إرسال عمّالها لجباية زكاة الإبل والغنم من البادية في جزيرة العرب وخارجها.

وكان لسوق الدرعية (سوق الموسم) أثرٌ كبيرٌ في زيادة الحركة التجارية فيها آنذاك، ويقع هذا السوق في وادي حنيفة بين حي الطُريف من الجهة الغربية وحي البُجيري من الجهة الشرقية، وعُرف باسم (سوق الموسم)؛ لكثرة الحوانيت التي يحويها، ولأنه عاملٌ جذبٍ مهمٌ يجتمع فيه عددٌ كبيرٌ من الناس. وقد ذكره المؤرخ ابن بشر ووصفه بقوله: "لقد نظرت إلى موسمها يوماً وأنا في مكان مرتفع، وهو في الموضع المعروف بالباطن بين منازلها الغربية التي فيها آل سعود، والمعروفة بالطريف، وبين منازلها الشرقية، والمعروفة بالبجيري التي فيها أبناء الشيخ، ورأيت موسم الرجال في جانب، وموسم النساء في جانب، وما فيه من الذهب والفضة والسلاح والإبل والأغنام، وكثرة ما يتعاطونه من صفقة البيع والشراء، والأخذ والعطاء، وغير ذلك. وهو مدّ البصر لا تسمع فيه إلا دويّ النحل من النجاج، وقول بعث واشترت، والدكاكين على جانبيه الشرقي والغربي، وفيها من الهدم والقماش والسلاح ما لا يوصف".

لم يتوقف دور السوق على الحركة التجارية فقط، بل أصبح أيضاً مكاناً للتعلّم، فقد كان للإمام سعود بن عبدالعزيز مجلسٌ درسٍ يوميّ يعقده في هذا السوق مع شروق الشمس، فيجتمع له خلقٌ كثيرٌ من أهل الدرعية، ولا يتخلّف منهم إلا قليل، وقد كانوا يجلسون في فصل الصيف عند الدكاكين الشرقية، وفي فصل الشتاء عند الدكاكين الغربية.

إنّ قصة الدرعية يجب أن تُروى وتُبرز، وخصوصاً من المؤرّخين والآثاريين؛ بالتنقيب عنها وتحليل تلك الأحداث التاريخية التي مرّت بأقدم موطن ثابت للأسرة السعودية المالكة منذ 600 عام، وبالكشف عن أبرز مظاهر جودة الحياة فيها، وما وصلت إليه مدينة الدرعية من ازدهار حقّق معنى جودة الحياة بمفهومه العميق. وقد وصف هذا العمق المؤرخ عثمان ابن بشر في قوله: "وكانت هذه البلدة أقوى البلاد، وقوة أهلها وكثرة رجالهم وأموالهم لا يحصيه التعداد، فلو ذهبت أُعدّد أحوالهم وإقبالهم فيها وإدبارهم في كتائب الخيل والنجايب العمانيات وما يدخل على أهلها من أحمال الأموال من سائر الأجناس التي لهم مع المسافرين منهم، ومن أهل الأقطار، لم يسعه كتاب ولرأيت العجب العجاب".